بين الدلتا والصعيد

فى مقال سابق[1] تحدثنا عن عصر ما قبل التاريخ والحضارات المختلفة التى نشأت فى شمال مصر وجنوبها ؛ وخرجنا بعد استعراض تلك الحضارات بأنه حتى فى ذلك العهد السحيق ، الذى نستطيع أن نرجع به فى القليل إلى ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، كانت هناك اختلافات ظاهرة فى المدنية والحضارة عامة بين شمال مصر وجنوبها . ومع ذلك فلم تلبث تلك الاختلافات أن تداخل بعضها فى بعض وأكمل بعضها بعضاً ، فاتحد مظهر المدنية واتخذت مصر طابعها الحضارى العام قبل أن يطلع فجر التاريخ . وقد يكون من المفيد فى هذا المقال أن نحاول أن نتتبع أسس الاختلاف بين شمال مصر وجنوبها ، وما يمكن أن نربطه به أو أن نرده إليه من اختلافات فى الطبيعة بين ما اصطلح الناس على أن يسموه الدلتا والصعيد فى وادى النيل ، وأن نحاول من جهة أخرى أن نعلل مظاهر الترابط والتكامل فى الحياة المصرية وفى حضارة مصر التاريخية ، مما كانت تقضى به عوامل الوحدة الطبيعية بين وجهى مصر ؛ تلك الوحدة التى سبق أن تحدثنا عنها إلى القراء فى أكثر من مقال .

وقد يحسن بنا أن نلج الموضوع من بابه ، فنشير إشارة عارضة إلى تاريخ نهر النيل وتطوره الذى أدى إلى تكوّن البيئة الطبيعية فى كل من الدلتا والصعيد . ذلك أن نهر النيل وإن كان من أعظم أنهار الدنيا ، إن لم يكن أعظمها ، من حيث جريانه وطوله وانتظامه ، ومن حيث إنه كان أول نهر عظيم قامت عن ضفافه مدنية مستقرة عريقة فى القدم ؛ فانه مع ذلك نهر حديث جداً من الناحية الجيولوجية . ومن الثابت الآن أن منابعه الحبشية التى

---

(١) «الكاتب المصرى» عدد ٢٩ (فبراير ١٩٤٨) .

تجلب الغرين والطمى الدقيق الذى يكوّن تربة مصر الخصيبة ، لم تكن فى أول الأمر تتجه مياهها نحو الشمال ؛ بل إنها لم تتصل بنيل النوبة ومصر إلا فى عهد جيولوجى متأخر . حتى إنه ليقال على وجه التقدير إن طمى الحبشة لم يصل مصر إلا منذ نحو اثنى عشر ألف عام ؛ بل إن اتجاه العلماء يرمى الآن إلى اختصار تلك الفترة ، واعتبار وصول طمى الحبشة فى أدنى وادى النيل أحدث من ذلك . والشئ المهم أنه قبل أن يصل الطمى الدقيق كان النيل الأدنى يعتمد فى جريانه على الأمطار المحلية التى تسقط فى مصر وبلاد النوبة ؛ وكانت تلك الأمطار المحلية تجلب الحصى والحصباء والرمال الخشنة فتردم بها الوادى وتنشرها فى قاع ما صار بعد ذلك دلتا النيل . حتى إذا ما انقضى العصر المطير فى مصر وبلاد النوبة ، وانقطع مورد المواد الخشنة من رواسب نهر النيل ، كانت يد الخليقة المبدعة قد حولت مياه الحبشة — لأسباب جيولوجية لا داعى لأن نمسها الآن — فاندفعت تلك المياه نحو مصر وفرشت أرضها بطبقة رقيقة من الطمى ، هى التى استقر عليها الانسان وأخذ يفلحها منذ العصر الحجرى الحديث .

ولكن استقرار الانسان فى مصر ، واديها ودلتاها ، لم يأت دفعة واحدة ، وإنما جاء تدريجيا منذ مطلع العصر الحجرى الحديث . فنزل الانسان من الصحارى وعاش أول الأمر على الحافات الخارجية لوادى النيل . ولم يكن اتصال الانسان إذ ذاك بمجرى النيل قويا ولا مباشراً ؛ وإنما هو فى الحقيقة كان يعيش بين الصحراء والوادى . فكان يلتمس الصيد فى بعض الأحيان بين الحيوانات التى تسرح فى الصحراء ولكنها تهبط الوادى سعياً إلى الماء لا سيما فى فصل الجفاف ؛ كما كان يزرع بعض الحبوب ويلتقط بعض الثمرات أو يرعى بعض ما يستأنس من الحيوان فوق أرض الوادى وعلى حافات دلتاه . وعلى ذلك فلابد لنا أن نتصور أن حياة الانسان فى مصر كانت بين الصحراء والوادى . ويبدو أنها بقيت كذلك خلال العصر الحجرى الحديث ، وأنها احتفظت ببعض أمارات الاختلاط فيما تلا ذلك من أوائل عصر بداءة المعدن ؛ حتى إذا ما انتصف العهد الذى نسميه ما قبل الأسرات أى فى أوائل الألف الرابعة قبل الميلاد ، نزل سكان حافات الوادى إلى قاعه ، وأخذوا يعيشون فى جوار مجرى النهر ، ويقسمون أرض الوادى والدلتا إلى حياض مربعة أو

مستطيلة ، وينظمون مياه الفيضان ، حتى تجرى إلى الحياض فتغطيها بالطمى تغطية منتظمة ، ثم تنصرف عنها انصرافاً مضبوطاً محكماً . لتعود إلى مجرى النهر من جديد ، وتنصرف آخر الأمر إلى البحر ، بعد أن تغذى أرض الوادى والدلتا بأغلب ما تحمل من طمى وغرين . ولعل السبب الأكبر فى نزول السكان إلى قاع الوادى وأرض الدلتا أن النيل قد بلغ فى هذا الطور مرحلة خاصة من الأرساب ، فاستطاع أن يردم قاع واديه ، وأن يزيل منه المستنقعات والمسطحات المائية التى تعوق الفلاحة والاستقرار فوق الأرض . فضلا عن أن صحارى مصر كانت قد ازدادت جفافاً فى هذا الدور ، فلم يعد فى طاقة السكان أن يعيشوا بين الصحارى والوادى كما كانوا يفعلون من قبل ، بل إنهم اضطروا إلى أن يزداد اعتمادهم على فلاحة الأرض وتنظيم استغلال مياه الفيضان فى الرى والزراعة وفى استنبات ما يحفظ الحياة على الانسان والحيوان فى أرض هذا الوادى الخصيب .

ولقد كان نزول السكان إلى قاع الوادى نقطة تحول خطير فى حياة مصر والمصريين . بل إننا لا نبالغ إذا اعتبرنا هذا التحول إيذاناً بارتباط الانسان ببيئة فى مصر ارتباطاً مباشراً هو الذى لم يلبث أن انتهى إلى ظهور « العصبية الاقليمية » فى صورة محلية أول الأمر ، ثم إقليمية واسعة بعد ذلك ، ثم فى صورة قومية تشمل الوطن كله آخر الأمر . ولقد قامت هذه العصبية الاقليمية على أساس ارتباط حياة السكان بالأرض ارتباطاً مباشراً ؛ كما قامت أيضاً على أساس أن جهود الانسان تركزت فى بقاع معينة من أرض الوادى أو الدلتا هى التى أقيمت حولها الجسور لتحدد الحياض ، وهى التى شقت فيها القنوات لتحمل ماء النيل إلى الحياض أو لتصرفه عنها ، وهى التى أقيمت فوقها كومات التراب العالية لتقام على ذراها القرى فوق مستوى الفيضان ، ثم هى التى تفلح وتحرس مزروعاتها حتى تجنى ثمارها وتحصد حبوبها ، ثم هى أخيراً التى يرعى فوقها المستأنس من الحيوان بعد أن جفت الصحارى ولم يبق من مرعى غير أرض النيل . فلذلك كله قد ارتبطت جهود مجموعات البشر بقطع معينة من أرض مصر ؛ وحل ما نسميه الوحدة « الاقليمية » محل ما كان يعرف بالوحدة « القَبَلية » ؛ وقسمت أرض مصر بطريقة آلية إلى مناطق أو «أوطان» صغيرة ، انتشرت ، وجاور بعضها بعضاً على طول الوادى وفى دلتاه . ونستطيع

أن نتعرف شيئاً عن تلك الأوطان الصغيرة القديمة فيما خلفه لنا أهلها الأولون من آثار قديمة ، أغلبها من آنية الفخار التى رسمت عليها القوارب ، مما يدل على استخدام النهر فى الملاحة ، وعلى ارتباط حياة الانسان بمياهه الجارية ، ارتباطاً يبرز فى صورة جلية فى أواسط عصر ما قبل الأسرات ؛ ويزداد قوة كلما جرى به الزمن . وعلى هذه القوارب رسم أولئك الأولون علامات أو «شارات» تميز مختلف الأقاليم . وكانت هذه الشارات أقدم « أعلام » عرفها التاريخ ؛ فكان كل وطن صغير يعتز بشارته ؛ وكان الكفاح بين إقليم وإقليم يتمثل فى اعتلاء شارة على أخرى . وهكذا احتكت الأقاليم وتداخلت الشارات حتى انتهى الأمر بها جميعاً إلى ظهور وجهين اثنين لمصر ، هما الدلتا والصعيد ، قبيل أن يتحد القطر كله تحت إمرة نارمر الذى اشتهر فى التاريخ باسم مينا ، فرعون مصر الأول .

ولكننا لن نستطيع أن نتفهم الكفاح بين الدلتا والصعيد تفهماً صادقاً صحيحاً ، ولا أن نعلل ما نلحظه خلال أعصر التاريخ حتى يومنا الحاضر بين شمال مصر وجنوبها من اختلافات فى حياة السكان وتكوينهم ومشاربهم واتجاه ثقافتهم . . . لن نستطيع أن نتفهم ذلك دون أن نرجع إلى الطبيعة مرة أخرى ، فنحاول أن نكشف عما هناك من اختلاف فى البيئة والموقع والظروف الجغرافية المختلفة التى تسود الدلتا من جهة ، وتسود الصعيد من جهة أخرى .

والدلتا إقليم فسيح تمتد فيه الأراضى ذات اللبين وذات الشمال ، وتجرى فوقه فروع النيل العديدة ، تجتمع لتفترق ، وتنثنى لتتشابك ، وينحدر بعضها نحو الشمال الشرقى وبعضها الآخر نحو الشمال الغربى . وتختلف الأراضى فى الدلتا ، فبعضها مرتفع تقل فيه المستنقعات ، وبعضها منخفض تسوده الأحراش أو تغطيه المياه ، وبعضها رملى على الجوانب خفيف التربة ، وبعضها الآخر طينى متماسك ثقيل التربة . ثم إن جنوب الدلتا قريب من قلب مصر بعيد عن البحر ، تقل به الأمطار فهو يعتمد على مياه النهر اعتماداً كليا ؛ على حين أن شمالها قريب من البحر ، يسقط به من المطر ما يجعله أقل اعتماداً على مياه النيل من بعض الوجوه ، وتكثر به أراضى المراعى ومسطحات الماء على حساب أرض الزراعة والمسطحات الجافة . ثم إن للدلتا جهات أربع يختلف

بعضها عن بعض غاية الاختلاف ؛ فشرقها يقع إلى جوار صحراء سينا ويتلقى الغزوات حين تأتى من الشرق القريب ؛ وغربها مجاور لرعاة ليبيا الذين اتصلت بهم ثقافته منذ أقدم العصور ؛ وشمالها إقليم بحرى ارتبطت حياة سكانه بالمستنقعات والبحيرات وبالبحر ذاته ، فهم صيادون وملاحون ، وهم قد تأثرت حياتهم وثقافتهم بحياة البحر ، وبما قامت فى جزره الاغريقية وما وراءها من ثقافات وحضارات ؛ ثم إن جنوب الدلتا وداخليتها إقليم نيلى كان بمنأى نسبى عن مصادر الغزوات من الصحارى المجاورة على الجانبين ومن البحار الواقعة فى الشمال ؛ ولذلك احتفظ بطابعه الدلتاوى الخاص .

ولقد كان لكل هذه المؤثرات والظروف الجغرافية المختلفة أثرها فى حياة الدلتا والدلتاويين من أبناء النيل . فالدلتا إقليم غنى ، تتسع فيه الأرض ، تتنوع الموارد فى الزراعة ، والرعى وصيد الأسماك ، والتجارة ، والاتصال بالصحارى المجاورة والعالم البحرى ، وما وراء الصحارى والبحار ، ولذلك كانت الدلتا على الدوام مصدر الخيرات الأكبر بالنسبة لمصر ؛ وكانت حياة أبنائها فى عصور ما قبل التاريخ وحتى وقتنا الحاضر أكثر رخاء وأوفر مادة من حياة أبناء الصعيد فى جملته[1] . والدلتا كانت إلى جانب ذلك كثيرة السكان مترامية الأطراف ؛ وصلتها الغزوات من الخارج ، ولكنها استطاعت بحكم اتساع أطرافها وكثرة سكانها ، وبحكم أن صحارى مصر كانت على الجملة جافة وازداد جفافها خلال أعصر التاريخ ، مما جعل من العسير على الغزاة أن يعبروها فى أكثر من أعداد محدودة . . . استطاعت الدلتا بذلك كله أن تتلقى الغزوات ، وأن تهضم الغزاة موجة بعد موجة ، بما فى ذلك بعض الرعاة ممن استقروا على حافاتها الشرقية أو الغربية ، وانتقلوا بالتدريج من حياة الرعاة الصحراويين إلى حياة الزراع المستقرين ؛ وبما فى ذلك من استقر على سواحلها ونزل من موانيها الشمالية من أهل الجزر والبحار الشمالية ، ممن حملوا إلى مصر ألواناً من الجنس والثقافة والحياة البحرية لم تلبث كلها أن ذابت وتحللت فى حياة مصر والدلتا بعد فترة قصيرة أو طويلة . وإلى ذلك كله فان الدلتا ، إذ

---

(١) هذه العبارة عامة ، لا تنطبق على فئات خاصة من ذوى الأملاك الواسعة فى الصعيد .

استطاعت أن تهضم الغزاة وأن تحتفظ لمصر بطابعها الجنسى والثقافى العام على مر الزمن فانها لا شك قد أفادت من احتكاكها بالخارج ، فتنوعت ثقافتها ، واتسع أفق أبنائها ، وصارت على الزمن أبعد تقدماً وأكثر استعداداً للأخذ بأسباب المدنية والثقافة ، وتلقى معالم التجديد عن الخارج شرقاً أو غرباً أو شمالا . وهى لذلك كانت منذ أقدم العصور ، وبقيت على الجملة خلال أغلب أدوار تاريخ مصر ، أعلى ثقافة من الصعيد ، وأكثر استعداداً لأن تأخذ بأسباب النهوض والتجديد ، ولأن تتلقى الدروس عن الخارج ، ولأن تحد من تلك العصبية الاقليمية التى امتاز بها أبناء الصعيد على نحو حال فى بعض الأحيان بينهم وبين أن يأخذوا عن العالم الخارجى أخذاً حرا ، يجدد الحياة ويبعث فى ثقافتها ألواناً طريفة من ثمرات التجديد .

على أن الدلتا إذا كانت قد امتازت على الجملة بغناها ، وتنوع مواردها ، وكثرة عدد سكانها ، واتساع اتصالاتها بالخارج ، وبأنها رغم تلك الاتصالات قد حفظت على مصر طابعها الثقافى لأنها كانت من الكبر والاتساع بحيث لا يسهل الطغيان عليها مهما تلقت من الخارج من غزوات . ومهما نقلت عن الخارج من عناصر الثقافة وألوانها . . . إذا كانت الدلتا قد أدت ذلك كله لمصر ، فانها رغم ذلك كله كانت إقليماً يصعب توحيد أهله وجمعهم على أمر واحد فى شؤون التنظيم والادارة ، وسياسة الحكم ، وما اصطلح الناس فى هذه السنوات الأخيرة على أن يسموه « الدفاع العسكرى » . ولا غرو فالدلتا إقليم تقطعه فروع النهر فتفصل بين مختلف أجزائه . وهى إقليم تختلف فيه حدود المقاطعات وتتغير من وقت لآخر بحكم تغير فروع النهر وتحول مجاريها من عصر لعصر . ثم إن مصالح السكان ومصادر الخطر الخارجى تختلف من جهة لأخرى ؛ فشرقها لا تهمه الأخطار والهجمات إن جاءت من الغرب ؛ وغربها لا تهمه الغزوات إن جاءت من الشرق ؛ وشمالها يكاد لا يعنى بغير ما يأتى عن طريق البحر أو ما يتصل بالحياة البحرية ؛ وقلبها كان مطمعا للجميع ، فتفرقت ميول أهله وأصحابه بين تلك الجهات جميعاً . ثم إن الدلتا يصعب توحيدها وتصعب إقامة عاصمة واحدة تجمع بين أطرافها . ولذلك كله فقد كانت وكان أهلها أقل عصبية وأقل تماسكا من الناحية الادارية والعسكرية . قد تتشعبت وجهات بنيها واتجاهاتهم ومصالحهم وارتباطاتهم ؛ فلم نسمع كثيراً فى تاريخ مصر الطويل

بأن الدلتا كانت مبعث نهضة عسكرية شاملة تقوم على قوة « الرجال » أكثر مما تستند إلى قوة « المال » . وعلى العكس من ذلك كله كانت الحال فى الصعيد . فهو إقليم فقير نسبيا ، تضيق فيه أراضى الوادى على جانبى النهر ، بل إن عرض الوادى كله لا يزيد فى بعض جهاته على بضعة آلاف قليلة من الامتار . ثم إن الأرض فى الصعيد تصلح على الجملة للزراعة أكثر مما تصلح للرعى أو غيره ؛ فليس هناك « تنوع » فى موارد الانتاج كما كانت الحال فى الدلتا . كذلك كان الاتصال التجارى بالعالم الخارجى محدوداً ومع جهات أفقر مما كان عليه اتصال الدلتا بالشرق القريب والبحر الأبيض المتوسط . ثم إن اتصالات الصعيد الثقافية بالعالم الخارجى كانت قليلة أيضاً . بل إن الصعيد كان يعتبر منفذاً ومخرجاً لثقافة مصر وحضارتها نحو جنوب الوادى من جهة ، ونحو البحر الأحمر وبلاد بنت من جهة أخرى ، أكثر مما كان مدخلا لألوان الثقافة من تلك البلاد . وحتى الصحارى والواحات المجاورة للصعيد لم يكن بها من السكان الرعاة مثل ما كان على جوانب الدلتا من الرعاة الأقدمين ، الذين أنار اتصالهم أهل الدلتا بألوان طريفة من الثقافة بين حين وحين . بل إننا إذا رجعنا إلى الزراعة ذاتها وجدنا أن الدلتا كانت تفيد فى محصولاتها الشتوية بأمطار الشتاء التى تغذى النبات فى وقت تنحسر فيه مياه النيل ، على حين كانت الأمطار شحيحة فى الصعيد مما أدى إلى فقر المحاصيل بالنسبة للحالة فى الشمال . لذلك كله كان الصعيد أضيق فى مساحة الأرض ، وأقل فى عدد السكان ، وأفقر فى الزراعة ، وأقل فى تنوع المحاصيل والموارد ؛ كما كان قليل الاتصال بالعالم الخارجى ومحدوداً فى أفق ثقافته ؛ بل إنه كثيراً ما اعتمد فى هذه الناحية الأخيرة على ما كانت الدلتا تمده به من ألوان الفكر والثقافة النيلية والخارجية بين حين وحين . ومع ذلك كله فقد ساعد تحديد الوادى وضيقه وامتداده من الجنوب إلى الشمال وجريان نهر النيل فى مجرى واحد من أقصى الصعيد إلى أقصاه ؛ ساعد ذلك كله أن ترتبط الأقاليم المحلية فى الصعيد بعضها ببعض ، وعلى أن يسهل توحيد ذلك الوجه من مصر توحيداً إداريا وعسكريا . كما ساعدت قلة اتصال الصعيد بالعالم الخارجى على أن تتركز فيه وفى أهله روح العصبية المصرية ، وروح الثورة على التجديد ، لا سيما إن جاء مفروضاً على مصر أو مستعاراً من الخارج.

ولطالما تمثلت روح العصبية والثورة هذه فى نظام عسكرى ساعد على نموه ما استشعره أبناء الصعيد فيما بينهم دائما من إحساس بالوحدة ونزوع إلى التماسك والتساند والنظام . بل طالما استطاع صعيد مصر أن يجمع كلمة أبنائه جميعاً على أمر واحد بأيسر مما استطاعت دلتا النيل ، بحياتها المتفرقة ومناحيها المتشعبة . ولقد تمثلت روح الوحدة فى الصعيد فى كثير مما مرت به مصر من أزمات تاريخية ، وما تعرضت له من أخطار أجنبية مزقت وحدتها ، لا سيما فى بعض أدوار العهد الفرعونى . . . ذلك العهد الذى كان مطلعه تلك الوحدة الشاملة التى تمت للبلاد على يد نارمر أمير طيبة ، وجامع كلمة الصعيد ، ثم موحد الوجهين تحت تاج واحد .

أما بعد فهذا مقال سيقرؤه كثير من أبناء الدلتا وأبناء الصعيد . وليس القصد منه أن يرضى عنه أولئك أو أن يغضب منه هؤلاء ، ولا القصد منه أن يكتفى القارئ بأن يخرج بقضية عامة هى أن الدلتا قد أمدت مصر بالحياة والثقافة والمال ، على حين أمدها الصعيد بالنظام والوحدة وقيادة الرجال ؛ ولا أن يخرج بأن الدلتا حفظت على مصر حضارتها ، وتاريخها الثقافى المتصل ، وطابعها المصرى الذى يجمع بين التميز والتجديد ، فى الجنس والثقافة ومختلف مظاهر الحياة المدنية ، وبأن الصعيد أنقذ العصبية المصرية ، ورد إليها روح الوحدة والكفاح بين حين وحين ؛ ولا القصد منه أن يمن أبناء الشمال على أبناء الجنوب بما قدموا لهم ولمصر أم الجميع ، ولا أن يكون المن من قبل أبناء الجنوب على أبناء الشمال . وإنما القصد أن نحاول أن نلتمس فى الطبيعا والبيئة والظروف الجغرافية والموقع الجغرافى العام ، ما قد يعيننا على أن نجد تفسيراً مقبولا لما بين الدلتا والصعيد من وجوه الاختلاف . ومع ذلك فينبغى أن نذكر دائما أن هذين القسمين العتيدين من مصر الخالدة كانا على الدوام متكاملين ؛ ولم يستطع أحدهما فى يوم من الأيام أن يدعى أنه مصر بكاملها ، أو انه أقرب إلى روح مصر من الاخر ، وإنما أمد كل منهما الآخر بما اختصته به الطبيعة من خير وفضل . فلم تملك الدلتا فى وقت من الأوقات أن تحبس خيراتها أو ثقافتها على نفسها ؛ ولم يملك الصعيد فى وقت من الأوقات أن يحبس على نفسه نظامه وعصبيته ومقدرته على القيادة والتوحيد . وإنما جمع الله بين

الشطرين فى وحدة شاملة رائعة ؛ هى تلك التى أتم الله بها نعمته على أبناء وادى النيل ؛ بل هى تلك التى امتازت بها مصر على غيرها من البلاد القديمة والحديثة ؛ فتكاملت فيها الأوضاع ، وتساندت فيها مقومات الحياة ، وتشابكت المصالح تشابكا لا يدع مجالا لانقسام أو انقطاع . ولم يكن غريباً أن تبرز الوحدة فى مصر قبل أن يعرف العالم فى غير مصر شيئا عن تكامل الحياة بين الانسان وأخيه الانسان ، وعن أن الله خلق الناس فرادى لتتصل بينهم الأسباب ، ولتكون وحدة الحياة فيما بينهم مستمدة من وحدة الخليقة ؛ وتكون وحدة الخليقة بذلك كله صورة خالدة من وحدة الله .

سليمان حزين